الفصل الأول

نظرة بحثية شمولية

الفصل الأول
نظرة بحثية شمولية

1- في مجال المراهقة:

فترة المراهقة: عندما يصل ولدك إلى سن الخامسة عشرة يكون في معمعة المراهقة، ولذلك يكون - على ما أعلم- مصدر قلق لك: إذ ألا يمر "بسن العقوق"؟ ولكن في الحقيقة يوجد في بيتك مراهقان في نفس الوقت: وإني لأتخيل علامات الدهشة التي ترتسم على وجهك، فإن ابنتك لم تصل بعد إلا إلى سن الثانية عشرة. ولكن في الواقع، تترك الفتاة في حوالي سن الثانية عشرة ما يسمى بالطفولة الثالثة لتدخل في مرحلة المراهقة، بينما ينتظر الطفل عاماً آخر أو عامين قبل أن يصل إلى هذه المرحلة، التي تمتد حتى سن الثامنة عشرة أو العشرين تقريباً. أما بالنسبة لطفلك الأخير، وهو في الثالثة من عمره، فليس هناك ما يدعو لضمه إلى هؤلاء الشباب ولو أن المرحلة التي يمر بها، وهي الطفولة الثانية وتمتد من الثالثة إلى السابعة، تتشابه كثيراً في العديد من جوانبها مع مرحلة البلوغ، وهذا ما سأوضحه فيما بعد.

البلوغ والمراهقة والشباب: ولنتفق منذ الآن- وبعد أن حددنا إجمالاً الفترة المتوسطة التي تمتد إليها المراهقة- على معاني الكلمات التي ذكرتها منذ قليل للتدليل على هذه المرحلة من الحياة. ولكن يجب أن نعترف بعدم اتفاق الكتاب على معاني هذه الكلمات، وسنلتزم هنا بالحديث عن فرنسا وعادة ما تستخدم

فيها الكلمات: البلوغ والمراهقة والشباب خطأ، إذ إنها ليست مترادفة. وتبدو "المراهقة" Adolescence كما لو كانت كلمة عامة تدل عادة على مجموعة التغيرات الجسمية والنفسية التي تقع في الفترة ما بين الطفولة وسن النضوج. أما عند الحديث عن "البلوغ" Pubertè فإن ما يعن بذهننا عندئذ هو الجانب العضوي للمراهقة وبخاصة ظهور وقيام الوظيفة الجنسية. أما "الشباب" Jeunesse فهو الجانب الاجتماعي للمراهقة، ويمتاز بمناقضته للجيل الذي وصل فعلا إلى النضوج الحقيقي؛ والشباب هو الفترة من النمو التي يندفع خلالها الكائن الذي صار مالكاً لكل إمكانياته نحو من سبقوه في حماس وصبر نافد ليتخذ لنفسه مكاناً تحت الشمس.

ولعلك تفهم الآن لماذا يتحدث الأطباء والبيولوجيون عن "البلوغ" بخاصة، بينما يتحدث رجال الأخلاق عن "الشباب" ولماذا أفضل كلمة "المراهقة" التي يستخدمها عادة علماء النفس الفرنسيون والأنجلو سكسونيون.

ولكنا إذا نظرنا عن قرب للأمور، نجد أن البلوغ والشباب هما في الواقع فترتان متتاليتان تضمهما المراهقة.

ففي حوالي سن الثانية أو الثالثة عشرة تبعاً للأجناس المختلفة، ونعنى بهذا السن اللحظة السابقة تماماً للبلوغ، وتسمى لحظة "ما قبل البلوغ" la prepuberte يختل الاتزان الجسمي والفكري للطفولة، وتطرأ تغيرات عضوية عميقة تعطى للجسم بنية مغايرة وقوة متزايدة وأشكالاً أكثر وضوحاً؛ ويقل ثبوت الشخصية وتتحلل العادات الطفولية ، وتبرز اهتمامات جديدة تشهد على وجود رغبة في توسيع أفق الحياة الذي كان يقتصر من قبل في أغلب الأحيان على نطاق الأسرة والمدرسة؛ وتزيد أحلام اليقظة حتى تصير أحياناً عائقاً للعمل المدرسي. ويسبق هذا الاضطراب الذي رأى فيه مندوس P.Mendousse فترة من "الحياة

المتشنجة" ، وبوهلر ch. Buhler "فترة سلبية" - ويعلن أيضاً عن قدوم البلوغ والوظيفة التناسلية. وتمتد هذه الفترة من سن الثانية عشرة إلى الخامسة واو السادسة عشرة، وتأخذ دائماً شكل أزمة هي "الاضطراب البلوغي" Trouble Pubertaire ، وغالباً ما تكون فترة من القلق يبدو فيها الجسم مخلعاً والمزاج منحرفاً، ويشعر فيها الصبيان والبنات بإحساس التقدم في تعثر نحو مستقبل غير مضمون.

ثم يزداد الكيان رسوخاً، والحياة الفكرية ثبوتاً، وينمو الاهتمام بالمهنة التي سيتخذها الفرد لنفسه، وفي معظم الأحيان تكون فترة التمرين قد بدأت فعلاً؛ وتزيح المسائل السياسية والاقتصادية والاجتماعية العمل المدرسي إلى المرتبة الثانية إذ إن الحياة تحتاج إلى نشاط متعدد الجنبات، وتترعرع العواطف كأشجار الخوخ في شهر أبريل، ويتحول البالغون بعدما كانوا يحسون به من قلق وضيق إلى شباب ينظر إلى المستقبل في شغف ويفتح أجنحة خياله لآفاق الأمل. وتستمر هذه المرحلة من سن السادسة عشرة إلى حوالي سن العشرين[1]، وهذه هي مرحلة "فورة الشباب" Exaltatiou juvenile التي عرفها أفلاطون "كنشوة ذهنية" سرعان ما يعلن بعدها الشاب عن إقامة بيته ونشاطه المهني والإسهام في شؤون المدنية، إذا لم يكن قد تم له ذلك فعلا، ويدل هذا على قدوم سن النضوج.

(1) وكثيراً ما يمتد الشباب إلى سنوات النضوج الأولى، أي إلى سن الخامسة والعشرين أو الثلاثين، وحتى إلى ما بعدها، وهنا تضيع معالم هذه الفترة ولكننا نتحدث هنا عن "شباب المراهقة" la jeunesse adolescente.

●أخطاء يجب تفاديها: ولنحذر أول هذه الأخطاء: وهو الاعتقاد بأن المعلومات الخاصة بمدى وتطور المراهقة لها قيمة مطلقة. ولعلك تعرف شباباً. وبخاصة من الفتيات ذات المستوى المتواضع اللائى تظهرن كما لو كن يسرعن بالانتقال من الطفولة لحالة النضوج اللائي قد يصلنها في سنة السابعة عشرة؛ بينما هناك شباب آخر، خاصة في بعض الطبقات الميسورة، يتمهل عن طيب خاطر في اجتيازه لحالة المراهقة، فلا يكون هؤلاء الشباب رجالا حتى سن الثانية والعشرين أو الثالثة والعشرين. ولما كان البلوغ قد يسبق أوانه إلى حد ما، كانت المراهقة على العكس من الطفولة، ذات مدى قد يصل إلى الضعف في حالات متطرفة.

وكذلك تلازم مظاهر المراهقة تغيرات محسوسة تبعا للجنس أولاً؛ فإذا كانت كلمة "طفل" تستعمل للذكور والإناث على السواء، فإن روح الشاب تختلف عن روح الشابة. وثانياً تبعاً للوسط ، فإن سلوك تلميذ المهنة يختلف في عدة نواحي عن سلوك الطالب. وثالثاً وأخيراً، تبعاً للتكوين والحالة المزاجية، فليس هناك تاريخ واحد لنمو الشباب، بل توجد تواريخ ، وهذا ما دعاني للاعتقاد بوجود عدة "أنماط للنمو؛ وحتى في هذه النظرة السريعة الشاملة التي أحاول تقديمها لك هنا، أجد نفسي مضطراً- مع تأكدي من وجود سمات عامة لكل المراهقين- لإقامة فوارق حتى لا أستسلم إلى الاتجاه الذي نصادفه حتى في أكثر الأبحاث جدية، وهو الاتجاه الذي يعتبر الفكرة الجزئية فقط عن الشباب حقيقة كاملة.

فإذا ما سرنا بهذا الرأي إلى أقصى حدوده، يمكننا القول بوجود مراهقين، لا بوجود مراهقة.

والخطأ الثاني هو الاعتقاد بتغير الشباب تبعاً لمراحل مختلفة بنفس سرعة "الموضة" وهكذا كان الحديث عن شباب عام 1950، وشباب عام 1970 أو "شباب ما بعد الحرب"، وشباب الأزمة الاقتصادية العالمية؛ وعندنا أيضاً دراسات كثيرة عن شباب ما بعد عام 1970، ومن الأمور المسلم بها أن الشباب يعكس أهواء عصره إذ إنه أكثر من غيره تفتحا للمؤثرات الاجتماعية الجديدة، ومع ذلك يعتبر الاعتقاد بأن الشباب مجرد شخص واحد في ثياب مستعارة متلاحقة، وأن كل جيل له "شبابه" الذي يختلف تماما عن شباب الجيل السابق، خطأ يقع فيه رجل الأخلاق الهاوى المتسرع، وقد تتمثل المراهقة المعاصرة في صورها الحديثة، فهناك الرياضي الشاب الذي يعدو في خطوات رشيقة على أرض الملعب، والكشاف الذي يتزين بالشعارات الغريبة ويعسكر في خيمة أمام النار في خلوة الغاب، والشابة ذات الشعر القصير التي تحب الرياضة وتصافح في قوة بيدها، ولكن خلف كل هذه الوجوه المتغيرة للشباب، يوجد شباب أزلي يتشابه دائماً مع نفسه على مر العصور باتجاهاته وقوانين نموه وطريقته في تفهم عالم الأشياء والكائنات؛ وهذا الاستمرار هو الذي يجب أن يلاحقه بالكشف والتعريف.

- المظاهر المختلفة لعالم المراهقة: ولما كانت المراهقة قطاعاً من حياتنا يظهر كحقيقة كاملة ومعقدة، أو كعالم غير مغلق طالما أنها تتصل بالطفولة التي تسبقها وسن النضوج الذي يليها، فإنها تنتظم في حركة خاصة بها، ويمكننا دراسة المراهقة من وجهات نظر مختلفة، فهناك البيولوجيا وعلم النفس والتربية، وكذلك علم الأخلاق الخاص بالمراهقة. وهكذا يجب علينا، لكي نلم تماماً بالمراهقة، أن نستعرض كل جوانب هذه الحقيقة،

ولكن الدراسة النفسية تظل عملنا الأساسي، ولا بد أن تكون قد تصورت هذا دون عناء، على أن تستكمل هذه الدراسة بالمعلومات التي تمدنا بها العلوم الأخرى.

وهذا هو مجال المراهقة كما حددنا إجمالا، وكما سنرتاده فيما يلي:

2- كشف حديث معقد:

المعرفة التقريبية بالمراهقة: ما زلت أتذكر يا صديقي صورة مظهرك المرتبك وأنت تسألني عن مشاكل المراهقة وكأنما كنت تعتذر عن نقص معلوماتك، ولكن هذا ليس خطأ لا يغتفر، بل هو خطأ ينتشر بين غالبية المثقفين، فإن الدراسة المنهجية لهذه الفترة من الحياة لم تبدأ إلا منذ نصف قرن، وهي دراسة حديثة معقدة لا يعرفها الناس بعد جيداً.

ولكن هل يعني هذا أنه قبل عام 1900 لم تكن هناك أية معلومات عن المراهقة؟ لا، ولكن كان يكتفي بعدة مبادئ تجريبية يمتلكها كل شخص ناضج يفكر، فكل منا يحتفظ في الواقع بذكرى مراهقته، وكذلك بالخبرة التي أمكنا الحصول عليها من اتصالنا المباشر بالشباب، وأخيراً بالصورة التي يقدمها لنا الكتاب عن الشباب. وهذا ما يمكن أن نسميه بالمعرفة التقريبية، وتتميز عن المعرفة العلمية التي اقتصرت حتى أواخر القرن التاسع عشر على نتائج بعض الأبحاث الطبية.

ويتذكر الإنسان شبابه، ولكنه في الواقع يتذكر الأحداث أكثر من الحياة التي كان عليها آنذاك. ولا تمدنا الذكريات إلا بصورة مشوهة براقة عن الماضي، كما أن النضوج باهتمامه ومشاغله يحجب عنا المرحلة التي سبقته ويمنعنا من تفهم أطفالنا في حقهم عندما نفاجأ بقول منهم أو حركة تصدر عنهم، إذ سرعان ما يعن ببالنا هذا السؤال " ألم نكن مثلهم في الماضي؟" وتطمئنا هذه الخبرة

بعض الشيء ، ولكنها لا توفر لنا المعرفة التي نحتاج إليها.

والاتصال بالمراهقين أكثر فائدة لأنه يسمح لنا بالحصول على خبرة أكثر موضوعية، وهكذا يتمكن كل مدرس من الحدس بالحالة الذهنية التي يكون عليها التلاميذ الكبار الذين يجذبهم إليه، ولكن هذا ليس سوى "حسن تصرف" أو نوعاً من البداهة التي لا يمكن الاعتماد عليها والتي تقوم شيئاً فشيئاً بعد عديد من الفترات والأخطاء السابقة!؟

وكذلك لا يمكننا التغاضى عما جلبه لنا الأدب، إذ لم ينتظر الشعراء والروائيون وكتاب المسرح حتى عام 1900 لكي يعالجوا في كتاباتهم نوعاً من التمهيد لعلم نفس الشباب، وقد يبدو أن جهلنا يتبدد إزاء الصورة الخالدة التي تمر أمانا أحياناً في ثنائيات مثل باولو وفرنشيسكا وروميو وجوليت وبول وفرجينيا، وأحياناً تبرز فرادى مثل إفيجيني في أوليس لاريديب، وناوسيس لأوفيه، وشاروبيم لبومارشيه وفرتر لجونه. وربما لا زلت تحتفظ في ذاكرتك بالأبيات الشعرية التي تغنى فيها هوراس بالشباب في لوحة تمثل المراحل الأربع التي يمر بها الإنسان.

ومن منا لم يستسلم لسحرى المراهقين الذين صورهم روفاييل أو المصورون الإنجليز في أوائل القرن التاسع عشر؛ ولكن الإبداع الفني مهما بدا لنا رائعاً، لا يعطينا سوى تفسير ذاتي مثالي للمراهقة.

وقد نلجأ إلى رجال الأخلاق والفلاسفة، فقد أحيا لنا أفلاطون من بين القدماء صورة تلاميذ سقراط من الشباب في " محاوراته"، كما عرف العلامة أرسطو الشباب في صفحة شهيرة مؤثرة بما فيها من حذق وفطنة فإذا ما اقتربنا من عصرنا الحديث، استعدنا العبارات التي أوحى بها الشباب إلى بوسويه في

"مرثية القديس برنار"، وإلى جان جاك روسو في الكتاب الرابع من "إميل" حيث يتغنى الكاتب بأسرار هذه "الولادة الثانية" ويعنى بها البلوغ، ولكنا لا نجد عند هؤلاء المعلمين إلا بيانات مقتضية أو رؤى جريئة لا تتصل كفاية بالخبرة الحية، ومع ذلك يمكن أن نعتبرهم رواداً أوائل لما نسميه، الهيبيلوجيا lahebelogie أو علم الشباب.

وكانت اللحظة مناسبة ، إذ كان علم النفس يتمتع آنذاك بانطلاقة كبيرة بفضل التأييد الذي أعطاه (الفسيولوجيا) وعلم الاجتماع، فكان الأول يسمح بدراسة الأسس العضوية للحياة الفكرية بينما يدرس الثاني الأسس الاجتماعية لهذه الحياة. وهناك أمر آخر أكثر أهمية، إذ أعطت العلوم البيولوجية، بعد الأبحاث التي قام بها لامارك lamark وجوفردي سان- هيلير Geoffroy s int-Hilaire وداروين Darwin الأولوية لنظرية التطور من خلال تاريخ النوع، وكذلك من خلال تاريخ كل فرد؛ وهكذا أخذ كل ما هو سابق على الرجولة، أو " ما قبل الرجولة" إذا أمكنني استعمال هذا الاصطلاح ، أهمية كبرى، فقام الفكر البيولوجي ليبعث الحياة في البحث النفسي. وبعد ظهور كتاب برلير Preyer بعنوان "نفس الطفل l'am de l'enfant" في عام 1881، قام علم نفس للطفولة مع بالدوين J,M. Baldwin وجيمس سولى James Sally وستانلي هل Stanley Hall، فقد أحس هؤلاء بوجود حقيقة يجب الكشف عنها، كما أعلن روسو قبل قرن من ذلك التاريخ.

وكان تسمية "الطفولة" عندئذ تطلق على كل الفترة التي تمتد قبل سن النضوج وتعتبر المراهقة الفصل الأخير منها. ولكنا نلاحظ أن تفرقة أكثر وضوحاً أخذت تفرض نفسها بسرعة، وأن جماعة من علماء النفس كانوا يلتفون حول ستانلي هل عكفوا على دراسة المراهقة دراسة علمية، ومع ذلك ستظل المراهقة لفترة طويلة نهبة بين مرحلتي الطفولة والنضوج. وما زال البعض حتى يومنا هذا

يعتقد أن الطفل يظل طفلاً حتى سن الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة، يتم بعد ذلك انتقال بسيط إلى سن النضوج، ولكن هذا التقسيم لا يمت للحقيقة بصلة، إذ إن الفرد يمر فيما بين الثانية عشرة والثامنة عشرة أو العشرين بفترة من الحياة لها وحدتها وقوانينها ومشكلاتها ودورها.

وكان ضرورياً أن تحتل المراهقة مكاناً مرموقاً في دراسة النمو، أليست هي - كما يدل المعنى القديم للكلمة- "السن الذي يكبر فيه- الإنسان؟" وفي الواقع، يأخذ التطور بالنسبة لعلم الشباب، أهمية أولية، إذ قد يمكننا أن نتحدث عن الرجل الناضج بعامة دون أن نهتم بالتغيرات التي يحملها إليه السن وقد يبدو سطحياً أن نحلل نفسية الطفل بعيداً عن لحظة معينة من لحظات نموه، ولكن يكاد يستحيل علينا أن نحاول القيام بوصف تفصيلي للمراهقة دون أن نواجه التغيرات الدائمة التي تحدد حركتها ومن الطبيعي بعد ذلك أن يأخذ علم الشباب شكل التاريخ، وهذا ما وصل إليه ستانلي هل، ولذلك كان مؤلفه الرئيسي وعنوانه "المراهقة" وقد نشر في عام 1905، تراثاً حقيقياً كان له دوي عالمي، وكان يقوم على فكرة التطور، وضاعف تلاميذه لانكستر Lancaster وبارتريدج Partridge وسويفت Swift ومن ملاحظاتهم وأبحاثهم حتى عمموا تأثير أستاذهم على أوروبا كلها.

- صعوبة دراسة الشباب: ولعلنا ندرك الآن لما كان الكشف عن المراهقة حديثاً، فقد نشأت هذه الدراسة، كما حدث عند الكشف عن الطفولة، كنتيجة لانطلاقة العلوم البيولوجية. وما كان لها أن تقوم فيها سريعاً، وهكذا لا نعرف الآن المراهق جيداً كما نعرف الطفل. فلماذا تصعب بنوع خاص الدراسة النفسية

للشباب؟ وهذا ما حاولت تفسيره في مكان آخر[1] ولكنا نعيد إلى الأذهان فقط أن المراهقة سن مغلقة، تنعم بما هي عليه من سرية، وتهرب من السؤال أو تعطى إجابات علينا أن نتحقق من صحتها، كما أنها سن متقلبة قد يخذل السلوك فيها أكثر المراقبين دقة، وأنها أخيراً تسيء فهم نفسها عن غير قصد أو تعمد.

وقد ظهرت هذه الصعوبات من قبل في كتاب ستانلي هل، الذي يبدو رغم ثرائه بالمعلومات كبحث ناقص ليس له دائماً نفس القيمة.وقد أتاح اتساع فضول الباحث الأميركي له فرصة جمع نقاط عديدة يمكنه البدء منها، ولكنه لم يحقق له إلا القيام بتخطيط أولى للموضوع. وقد يعن بخاطرنا ونحن نقرأ مؤلفات هذا الباحث، الرحالة ليفنجستون وهو يرتاد القارة السوداء، فبد كان- والحق يقال- مكتشفاً يقوي على تخطي العقبات ومواجهة المشكلات وتكديس العديد من الملاحظات التفصيلية خلال ما قام به من جولات.

ومن بعده امتدت الرغبة في التعرف على الشباب إلى كل البلدان المتحضرة ولكن هل كان ذلك اهتماماً علمياً؟ لا شك في هذا إذ كان هناك من الظروف والأسباب ما يهيئ الفرصة للعمل من أجل هذا الكشف. فقد أدت ضرورة توجيه الشباب إلى مهنة تتفق واستعداداتهم إلى ظهور التوجيه المهني، كما استوجبت معايرة التجارب أو "الاختبارات" العديدة التي تساعد على التعرف على ذكائهم وشخصيتهم. وكذلك أدى وجود الانحراف بين الشباب زيادة الإجرام المبكر المرتبط باتساع المدن وحركة التصنيع إلى اهتمام علماء النفس بدراسة هذا العالم الخاص على أمل العثور على دواء ناجع يقومون به هذه الطبائع المنحرفة وبالإضافة إلى ذلك كان في قيام حركات الشباب التي ولدت

(1) في كتاب "كيف ندرس المراهقين" commente tudier les adoscents

مع القرن العشرين في إنجلترا وألمانيا ما يلفت النظر إلى الحياة الاجتماعية للشباب وما يسمح بمواجهة مشكلة التربية بأسلوب جديد. وقد حدس- ولا نقول تعرف- رواد هذه الحركات الأوائل وجود مظاهر خاصة بعقلية الشباب، وبذلك أسهموا جدياً في الكشف عن المراهقة. وأخيراً كان الاهتمام السياسي الكبير بهذا السن، وبخاصة منذ الحرب العالمية الأولى، فقد أتاحت الأجيال الشابة في البلدان التي عرفت القلاقل الداخلية مثل ألمانيا وروسيا وإيطاليا، فرصة قيام أنظمة جديدة، وكان السبيل إلى ذلك الاستعانة بالخصائص المفضلة عند الشباب وهي الحماس وحب التجديد وإنكار الذات.

وقد أفادت دراسة الشباب من كل تقدم عرفه علم النفس العام وبخاصة في مجال التحليل النفسي وعلم الخلق وعلم النفس الفني، وكذلك من تقدم البيولوجيا والطب وبخاصة بالانتصارات في علم الغدد الصماء، وبفضل هذه الانتفاضة المزدوجة، زادت دراسة الشباب في ميدان عملها وحسنت أساليبها فأضافت إلى الملاحظة والبحث، دراسة كراسات الاعترافات وتاريخ الحياة والاستعانة بالاختبارات والطرق أكثر دقة في القياس البيولوجي، وكانت أمريكا تعتبر دائماً المركز الرئيسي لهذه الأبحاث، ولكن منذ عام 1920، اشتدت موجة البحث في البلاد التي تتكلم الألمانية بفضل سترن وسبرانجر وبوهلر، وتقل حدتها في إنجلترا وفرنسا والبلاد المتحدثة بالفرنسية وكذلك في أقطار البحر المتوسط.

ولم ينته العمل بعد، فما زلنا نجد في خريطة المراهقة ما نجده في خرائط أفريقيا من "فراغات" لها مغزاها، كما أنه لا يمكن التوفيق تماماً بين كل الخرائط الموجودة، وهذا يعنى بلا شك وجود أخطاء إلى جانب الفراغات التي لا يمكن التجاوز عنها، وربما تؤدي الأبحاث الحديثة إلى تصحيح جاد ولكن لنحذر

السراب وسلاسل الجبال الوهمية والأنهار الخفية مثل النيجر عند علماء الجغرافيا في القرن الثامن عشر!...

منهج البحث:

ورغم وجود هذا النقص الذي رأيت من الضروري عدم التغاضي عنه، فقد تقدم البحث حالياً بما فيه الكفاية حتى أنه يكاد يعطى فكرة دقيقة عن هذه الفترة من الحياة.

وهكذا تكون علم الشباب وهو علم حديث، وسنتتبع خطوات الساعين للكشف عن المراهقة وهي مملكة من أجمل الممالك التي قامت تحت الشمس، وسنسلك في ذلك سبلاً عديدة تؤدي إلى حد ما إلى الاهتمامات المتلاحقة التي تثيرها المراهقة منذ نصف قرن.

فقد كان الاهتمام أولاً بالبلوغ وبالحياة العاطفية عند الشباب، وهي أكثر المظاهر وضوحاً في المراهقة وبعد ذلك كان تفتح الحياة الاجتماعية وتعلم المهنة ثم تأكيد الخلق وتكوين التفكير الشخصي، تستحوذ على اهتمام أكبر. وأخيراً كان التعرف على قيم الحياة اتجاهاً جديداً للبحث ، وسيؤدي بنا هذا الاتجاه في خاتمة هذا الكتاب، إلى التعرف على ما يمكن تسميته بمهمة المراهقة.

ولا تعتبر كل هذه السبل مرحلة محددة في البحث، فقد كان الاهتمام بالحياة الاجتماعية منذ عصر ستاتلي هل، كما أن الأبحاث في البلوغ، رغم أنها كانت أول ما أجرى من أعمال قام بها العالم الفسيولوجي مارو Marro لا تزال حتى يومنا هذا محوراً للبحوث البيولوجية. وسيجعلنا كل من هذه الطرق نلم بواحد من مظاهر المراهقة المختلفة. وسنبدأ بأكثر الأماكن وضوحاً كي نصل إلى

مناطق قل ارتيادها أو صعب وصفها. وهكذا لن نكون أمام تخطيط تاريخي لمراحل علم الشباب، بل أمام رحلة تسير في سبل متنوعة تسمح لنا بالكشف شيئاً فشيئاً عن حقيقة معقدة، متحركة هي عالم الشباب.

ولا يجب أن نحاول ذكر كل شيء في مثل هذا العمل الأولي، أو حتى تلخيص، ولكني أجتهد فقط للفت نظرك إلى ما يبدو لي جوهرياً. ومع أنى اعتمدت على الأبحاث التي نشرت بخاصة خارج فرنسا. لن أذكر من أسماء المؤلفين إلا القلة حتى لا أثقل النص بها وأخيراً لا يفوتني أن أقول إن لهذا الموضوع أهمية دائمة، بل إن له، في الظروف القاسية التي نمر بها الآن أهمية خاصة، ولهذا لن أتردد خلال هذا الكتاب في استعراض المشكلات الرئيسية التي تقوض إعداد الشباب ومستقبله.

وقصارى القول، فإن هذه النظرة الأولية تبين لنا أنه قد طال الجهل بالمراهقة. أما اليوم فإنها تثير اهتماماً كبيراً لدى جمهور يزداد اتساعاً كما يحدث عند اكتشاف قارة جديدة، فإن كتاب القصة كثيراً ما يسعون إليها للبحث عن شخصيات لرواياتهم، وكذلك يعتمد عليها رجال الحكومات، ويمجدها الصحفيون عن طيب خاطر، حتى تكاد تحاط المراهقة بهالة من التقديس. ولكن يبدو لي أنه يجدر بنا أولاً أن ندرسها حتى يمكننا أن نحكم بطريقة صحيحة على مدى إمكانياتها، أليس هذا ما تراه أنت أيضاً؟.

هيا بنا إذن نبدأ الرحلة.